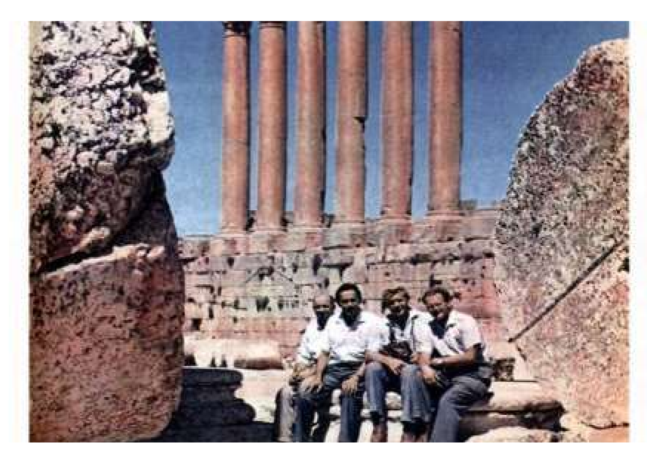


الرئيسية ثقافة

بعلبك 1959: مهرجان وسياسة...وحشيش(1)

عماد الدين رائف الخميس 2025/06/19





زيكموند وهانزلكا وتشالوبا وفيت في بعلبك

مشاركة عبر

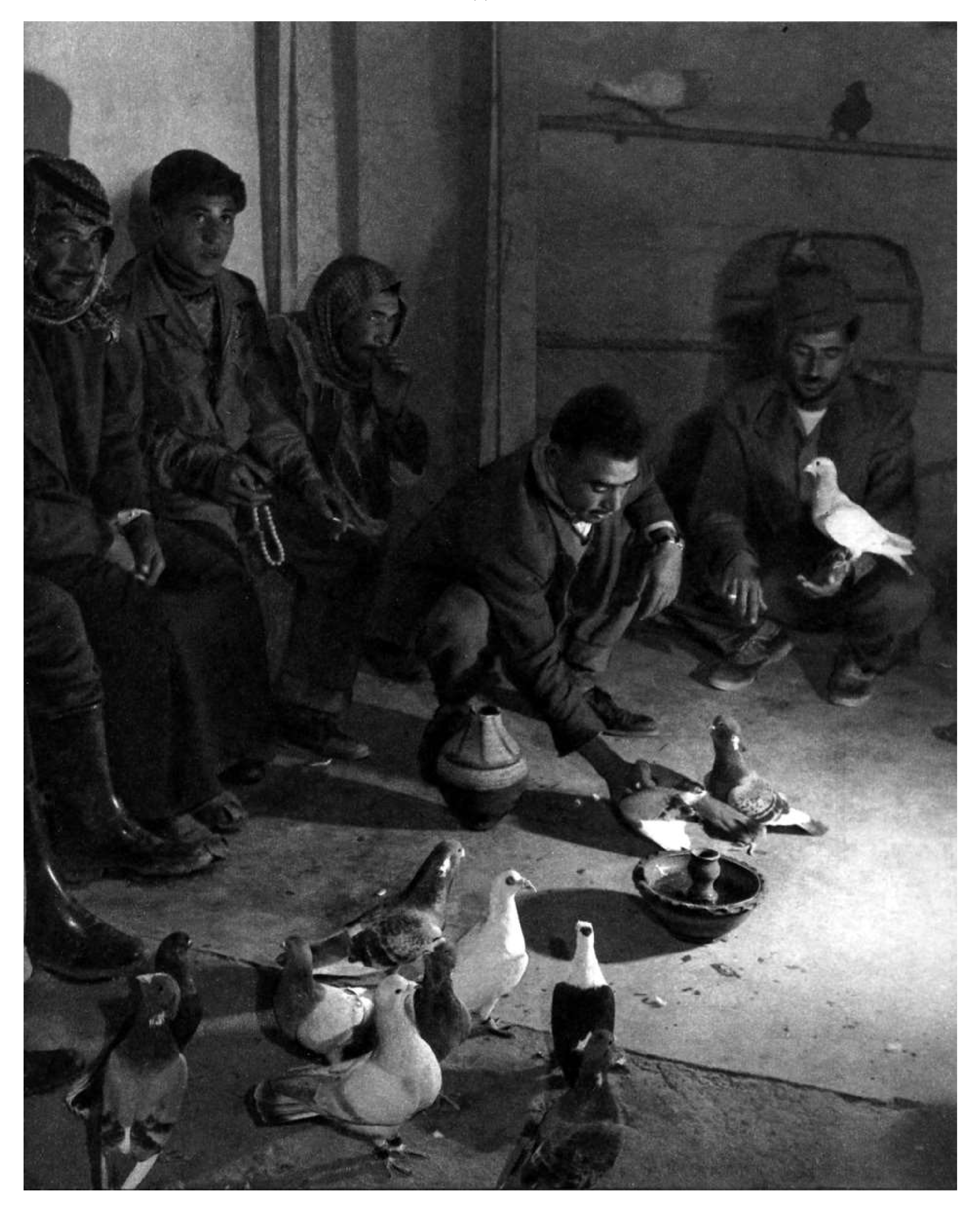


حجم الخط

إثر أحداث 1958 ونزول مشاة البحرية الأميركية في بيروت دعمًا لنظام الرئيس كميل شمعون ودفاعًا عن حلف بغداد في وجه المنتفضين، وصل الرحّالتان التشيكوسلافيّان، ميروسلاف زيكموند ويرجي هانزلكا، في رحلة بريّة طويلة إلى لبنان، عبر دول أوروبا الشرقية وتركيا وسوريا، ودوّنا المشاهدات، وتركا عددًا كبيرًا من الصور الفوتوغرافية، والأفلام التوثيقية التي عرضها التلفزيون الرسمي التشيكوسلوفاكي في براغ، مطلع ستينيات القرن الماضي.

كان زيكموند وهانزلكا أواخر الخمسينيات قد أنهيا جولاتهما في القارتين الأميركية والأفريقية، وخططا لرحلة عبر بلدان آسيا، انطلقت ربيع 1959، على متن سيارتين من نوع "تاترا 805"، برفقة المهندس أولدريش تشالوبا والطبيب روبرت فيت. ومن المحطات الشيقة في هذه الرحلة زيارتهما مدينة بعلبك مرتين. إذ كانت الزيارة الأولى استكشافية حيث تعرفا إلى المدينة وأحوالها، وجالا في القلعة وجوارها، وتفحصا أحوال أهل بعلبك. أما الزيارة الثانية فكانت بحثًا عن "حشيشة الكيف"، أو كما قالا: "هذه المرة نتجه إلى وادي البقاع للمغامرة. القصة التي نريد أن نعرفها محاطة بغموض عميق. كل شخص نبدأ معه الحديث عن هذا الموضوع يحاول تجنب المحادثة أو يتلفت حوله بخوف. بعد دقيقة أخرى، سيضع المحاور إصبعه على شفتيه مرتعبًا. نحن نتجه نحو سهل البقاع على خطى الكلمة، كأننا في قصة بوليسية. هذه الكلمة قاتلة".

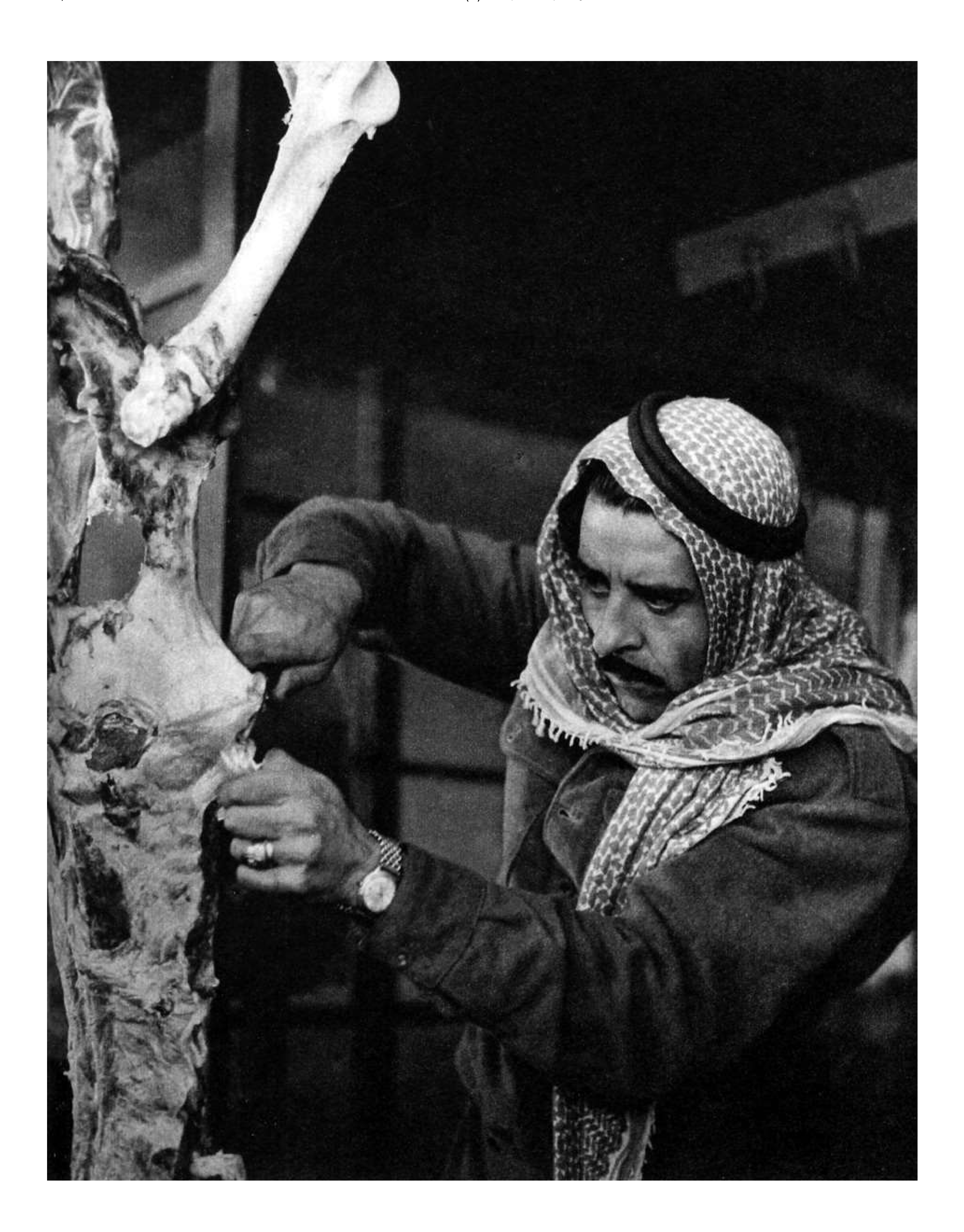
نضيء على ما جاء في هاتين الزيارتين عبر مدونات زيكموند وهانزلكا عن بعلبك وأهلها وأحوالهم، كما أورداها في فصلين من كتابهما "الهلال المقلوب"، الصادر في براغ سنة 1961.



(برج الحمام في بعلبك)

لا مسرح واحداً في لبنان. من وقت لآخر، تقوم مجموعة صغيرة من الهواة، تدعى "الكوميديا الشبابية"، بتقديم عروض لدائرة صغيرة من الأصدقاء، لكن كل "الفن" الآخر يتركز في الكباريهات، وما أكثرها هنا. كل صيف، في شهري تموز/يوليو وآب/أغسطس، تحدث معجزة. تأتي أوركسترا "موزيتشي" من روما وتعزف موسيقى موتسارت، وباخ، وبوكيريني، وفيفالدي. كما يأتي المسرح الدرامي الباريسي "مونبارناس" ويحمل معه "بلوتوس" لأريستوفانيس، و"فيدر" لراسين، و"إلكترا" لجيرودو. وتصل كذلك فرقة رامبرت للباليه من لندن، وهي فرقة رقص مكونة من ثلاثة وعشرين فنانًا بالإضافة إلى أوركسترا كبيرة. وتنضم إلى المهرجان أيضًا فرقة أوركسترا نيويورك الفيلهارمونية، التي تضم أكثر من مئة فنان.

أين يعزفون إذا لم تكن في بيروت قاعة مسرح لائقة؟
في بعلبك. في معبد باخوس القديم وعلى الدرج العملاق لمعبد جوبيتر الذي لم يتبق منه سوى ستة أعمدة. يُطلق على الحدث اسم "مهرجان بعلبك الدولي"، ولا يجذب الفضوليين والوجهاء فحسب، لكن أيضًا خبراء الفن الحقيقيين، الذين تسنح لهم فرصة الاستمتاع بحدث استثنائي في مكان استثنائي، أي بين أطلال بعلبك الشهيرة في ليلة صيفية في سهل البقاع المحصور بين سلسلتي جبال لبنان. وتحذر البرامج زوار المهرجان، الذين كانوا يختنقون طوال اليوم تحت حرارة البحر الرطبة التي تبلغ ثلاثين درجة، من أن بعلبك تقع على ارتفاع ألف ومئة متر فوق مستوى سطح البحر، ولذلك سيكون من الحكمة أن يرتدوا ملابس دافئة. ويختتم المهرجان بعرض لفرقة فولكلورية لبنانية مكونة من مائة وثلاثين فنانًا يرافقون المغنية فيروز، التي يطلق عليها الناس لقب "سفيرتنا إلى النجوم"...



(لحّام في سوق بعلبك)

... حتى في روما نفسها لم يكن هناك شيء يشبه ما بناه الرومان في القرنين الأول والثاني في سهل البقاع هذا! انتهت المقاطع الأخيرة من "رقصة السلة"، وكافأ الجمهور المتنوع "الرسولة إلى النجوم" بالتصفيق. كان درج معبد جوبيتر غارقًا في الظلام، ومن ظلام الليل تمكنت الكشافات من إضاءة ستة أعمدة... الناس الذين كانوا يستمعون بصبر إلى الموسيقى ويتأملون النجوم، الآن، بعدما نسوا عظمة القرون، تدافعوا نحو المخرج، وزجوا أنفسهم في سياراتهم، ومع هدير مئة بوق، باتوا يتوسلون إلى مراقبي المرور للسماح لهم بالخروج للالتحاق بسيل لامتناهٍ من السيارات المسرعة على طول سهل البقاع باتجاه بيروت. ينطلق هذا الخط بأكمله من السيارات عبر ظلام الليل بسرعة مئة كيلومتر في الساعة... وفوق أكوام الكراسي المتساقطة، وفوق زجاجات الكوكا كولا والبيبسي والسفن أب المهجورة، المغطاة بوهج سماوي، تنتصب الأعمدة العملاقة صامتة.

لا تقع في حب بعلبك من النظرة الأولى. سحر اللقاء الأول يتلاشى تدريجيًا وبحلول اللقاء الثاني ترغب بالفعل في التعرف إليها بشكل أفضل... أثناء سفره عبر الإمبراطورية العثمانية في العام 1898، توقف الإمبراطور الألماني فيلهلم في بعلبك فوجدها في حالة بائسة... عند عودته إلى برلين، أرسل مجموعة كبيرة من علماء الآثار إلى بعلبك. وعلى مدى سنوات، أزالوا طبقات القرون، واتخذوا التدابير اللازمة لمنع المزيد من تدمير المعبد، وأعادوا ما استطاعوا إلى مكانه الأصلي. استمرت عملية ترميم بعلبك على أيدي علماء الآثار الفرنسيين. لكن تدمير بعلبك لم يتوقف، ففي أماكن عديدة على الجدران الداخلية لمعبد باخوس سقطت قذائف المدفعية في تموز/يوليو 1958. فقد تعرضت بعلبك للقصف من الطائرات. صدر الأمر بذلك من قبل الرئيس شمعون، وكانت القنابل من صنع أميركي...



(فتاتان في زي فولكلوري لبناني)

التقينا به للمرة الأولى في سوق بعلبك. كان يرتدي جلبابًا قديمًا وسترة بأكمام مهترئة ووشاحًا أسود على رأسه. نظر إلينا بغضب، وبدا أكثر غضبًا من الآخرين، وبمجرد أن وجهنا الكاميرا لالتقاط الصور الأولى أزاحها بيده. وفي مرة الثانية رأيناه على باب مطعم صغير. كنا ننتهي للتو من تناول الكفتة المشوية ونتناقش خطة اليوم مع عارف، صديقنا اللبناني. عندما رآنا الغريب من السوق، لم يستطع أن يتعافى من المفاجأة لمدة طويلة. ثم جاء ليلقي السلام على عارف، ومد يده إلينا بخجل، وفي كل مرة كان يضغط بكفه على قلبه وشفتيه وجبهته، كما هي العادة بين العرب. قال عارف: "دعني أعرّفكم، هذا صليب عطية، جاري السابق".

قال عطية وهو في حيرة من أمره: "هناك، في السوق، اعتقدت أنك كنت واحدًا من هؤلاء... أحد هؤلاء السياح الذين لا نستطيع أن نتحملهم، لو كنت أعلم أنك من أصدقاء أستاذنا عارف.. إذا أردت، بالطبع... منازلنا ليست جميلة كمنازل بيروت... باختصار، ستشرفنا إذا أتيت إلينا، إلى منزلي، هذا المساء". بات عطية أكثر خجلًا ووجد صعوبة في اختيار كلماته.

والآن سنلتقي بصليب عطية للمرة الثالثة.

قادنا عارف لمدة طويلة، وتجولنا على طول الشوارع الضيقة الملتوية، المليئة بنقع الماء في كل خطوة. من الصعب أن نقول كيف وجد طريقه: إما أنه رأى في الظلام مثل القطة، أو أنه كان يعرف كل زاوية وركن عن ظهر قلب. وأخيرًا، أشعل عود ثقاب، فأضاء مدخلًا في جدار طيني... بلا أبواب. عود ثقاب آخر، وفي ضوئه القصير لاحظنا أن مضيفنا ينظر إلينا من الظلام، من مكان ما تحت السقف. "كن حذرا، اذهب إلى اليمين، اصعد الدرج. هناك حظيرة في الأسفل". في أعلى الدرج فوقنا ظهرت نجوم السماء. "إلى أين يقودنا يا عارف؟".

- "إلى سقف الحظيرة. في الصيف، يستمتع الناس بالاسترخاء هنا في المساء وينامون هنا أيضًا. الآن فقط، عندما أصبح الجو باردًا، يدخل الجميع".

ظهر عطية حاملاً مصباح الكاز (الكيروسين) في يده. "مساء الخير". نخلع أحذيتنا عند الباب واحدًا تلو الآخر. ويتبع ذلك تعريف طويل بالمضيفين. اجتمعت العائلة كلها، أي أبناء صليب الستة وإخوته وأبناء إخوته. لا يمكن سماع أصوات نساء العائلة إلا من المطبخ الصغير في الطرف الآخر من المنزل. شيئاً فشيئاً يهدأ الضجيج الناجم عن وصولنا، ويجلس الجميع حيث توجد مساحة، على السرير والحصائر على طول الجدران، وعلى كراسي القش، ببساطة في دائرة على الأرضية الطينية النظيفة. وضع عطية المصباح على الأرض في منتصف الغرفة ورفع الفتيل. الآن فقط يمكننا أن نتفحص بعضنا بعضًا بشكل واضح، والجدران العارية والعوارض المسودة تحت سقف الغرفة المفروشة كيفما اتفق. اعترض عطية نظراتنا:

- "ليس فاخرًا جدًا، أليس كذلك؟ مَن المخطئ في أننا لا نملك شرفة، ولا مياه جارية، ولا صرفاً صحياً، وأننا نضطر إلى إضاءة مصابيح الكيروسين. نحن أيضًا نرغب في العيش في منزل حجري، لكن من أين يمكننا الحصول على المال لذلك؟ هنا، يبني كل شخص منزله بما تيسر. كما ترى، من الطين. إنه مجاني. حتى السقف مصنوع من الطين. عندما تمطر، عليّ أن أشطف الماء إلى الأسفل حتى لا يتسرب".

- "وكيف تعيش يا صليب؟"

- "كيف؟ أنا وزوجتي نعمل في مزرعة الشيخ إذا كان هناك عمل. حوالى شهر واحد في السنة، أثناء الحصاد".

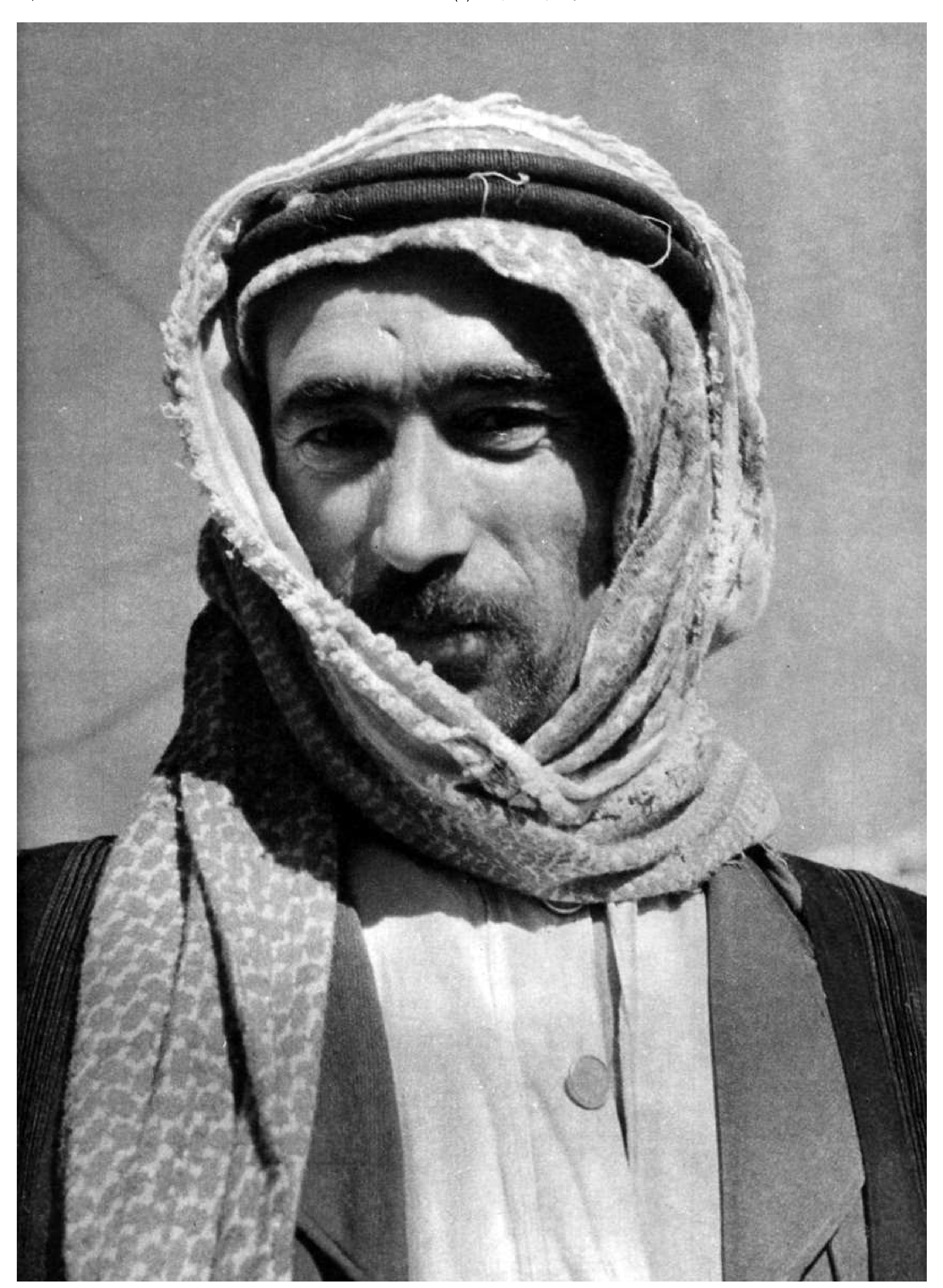
ينضمّ عارف إلى المحادثة: "يحصل على ثلاث ليرات ونصف ليرة في اليوم، وتكسب زوجته ثلاث ليرات عن اثنتي عشرة ساعة عمل".

يشعل خالد صلح حطبًا تحت غلاية في زاوية الغرفة. نعم، نعم، بالطبع، سنكون سعداء بتناول كوب من الشاي. في هذه الأثناء، يعود صليب إلى مخاوفه: "صحيح، عارف يقول الحقيقة. نجلب إلى المنزل نحو مئتي ليرة خلال شهر. وبعد الحصاد نحمل الحطب على الجمل حتى الشتاء. يستغرق الأمر يومًا للوصول إلى الغابة والعودة، وأحصل على ليرتين مقابل ذلك. يستمر ذلك ثلاثة أشهر تقريبًا فنحصل على مئتي ليرة أخرى".

- "وتعيش على هذه الأربعمئة ليرة لمدة عام كامل؟"
- "وما الذي يمكنني فعله؟ أن...".

عندما نطرح أسئلة كهذه نشعر وكأننا ننكأ الجراح. لكن بمجرد أن اعترفنا بذلك، بدأوا في تهدئتنا واحدًا تلو الآخر: "لا بأس، اسأل، لا تخجل. لم يخطر في بالنا أبدًا أنك قد تكون مهتمًا بكيفية عيش الأشخاص العاديين. لا تغضب مني بسبب ما حدث اليوم، من فضلك. أولئك... حسنًا، أنت تعرفهم... ذوو سلاسل الذهب وعقود اللؤلؤ، أولئك لن يأتوا إلى هنا!".

ثم أخبرنا عن نظام الأسرة الغذائي. بالنسبة للفطور، الطعام نفسه على مدار العام: البطاطس مع الشاي أو الكشك. وعلى الغداء، الكشك أو البرغل أو البطاطس. أما العشاء طوال العام، إما البرغل، أو البطاطس، أو الكشك. في بعض الأحيان يتوفر البصل النيء والبندورة (الطماطم) على الطاولة. عندما لا يتوافر الغذاء يقتصر الطعام على وجبتي الفطور والعشاء، وعندما يكاد ينفد يأكلون مرة واحدة فقط في اليوم. هذا في لبنان، أغنى دولة في الشرق الأوسط...



وجه من بعلبك

نعود بصمت عابرين الأزقة المظلمة إلى منزل عارف. كل شخص لديه عبء خاص على روحه إثر المحادثة مع صليب. في زاوية ما، داخل الأبواب المضيئة وصل إلى أسماعنا هديل حمام مصحوبًا بمحادثات المكتومة. برز رجل قوي يرتدي جلبابًا في المدخل كصورة ظلية سوداء.

- "السلام عليكم، عارف".
- "وعليكم السلام محمود". يرد عارف، بالنبرة نفسها. بدا وكأن التحية تتضمن عداءً مخفيًا.
- "من تصطحب في هذا الوقت المتأخر؟".
- "جاء أصدقاء من تشيكوسلوفاكيا لزيارتي".

وفجأة، كأن تيارًا كهربائيًا سرى في جسد محمود، رفع يديه فوق رأسه وقال:

- "يعيش جمال عبد الناصر!".

كأن صرخته احتوت على تحدٍّ وتهديد في آن. كما يعلم عارف ونعلم جميعًا: أن تكون شيوعيًا في "الجمهورية العربية المتحدة" اليوم، يعني أنك تخاطر بحياتك. ورأى الجميع بعيونهم التجربة المريرة التي عاشها الشيوعيون في سوريا المجاورة.

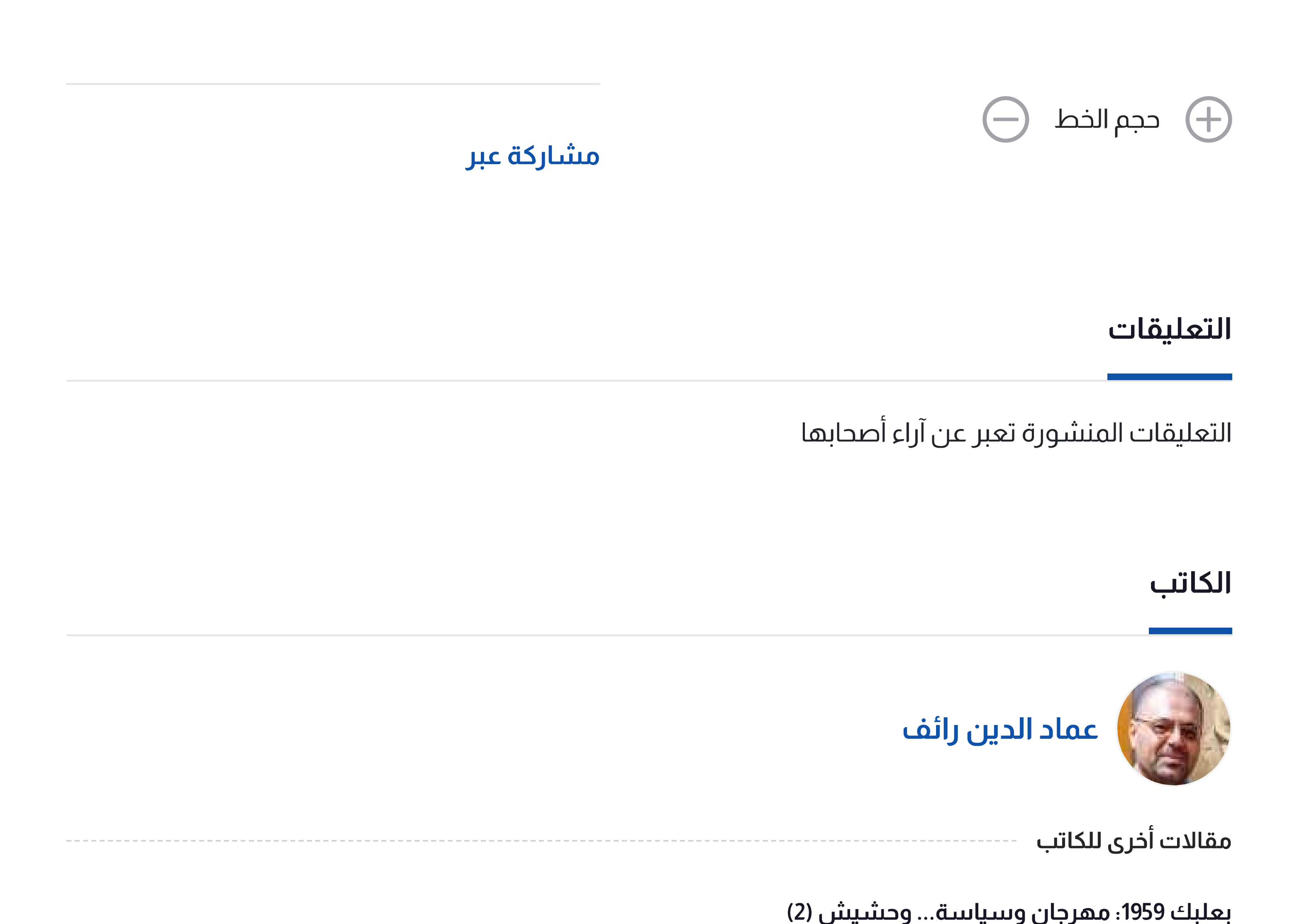
- "ما رأيك يا محمود ماذا كان ليحدث بقناة السويس، وأين كان ناصر الآن، لو لم يحصل على الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي؟".
- "الله أعلم يا عارف. أخبرني لماذا أنت دائماً على حق عندما نجتمع ونتجادل؟".

لم يجبه عارف، إذ فهم واحدهما الآخر من دون كلمات غير ضرورية. عارف يقود المنظمة المحلية للحزب الشيوعي اللبناني، ومحمود زعيم حركة القوميين العرب في المدينة. عرف إجابة سؤاله، على الرغم من أنه لم يسمعها. دعانا محمود للدخول. وبعد مدة من الوقت أدركنا أنه بهذه الدعوة كان، بشكل ما، يعتذر من عارف ويشيد به.

من الباب إلى الحاجز الشبكي المعدني على طول الجدارين، جلس الرجال الذين يرتدون الكوفيات على مقاعد، يدخنون ويحتسون مشروبًا ساخنًا، ومثل الخبراء، يتفحصون الحمام الرائع خلف الشبكة. في الزاوية، بجوار برج الحمام مباشرة، جلس صاحب المكان، أحمد شاويش عبد الهادي. قدّم نفسه لنا بطريقة

احتفالية وأومأ إلى ابنه ليحضّر لنا أكوابًا من الكاكاو الحلو. جلس الرجال صامتين.. لا يكاد يسمع صوت سوى هديل الحمام، ومن وقت لآخر يصدر صوت نارجيلة أحمد.

... لقد انتهينا من الكاكاو، وأعربنا عن امتناننا، وأجبنا على الأسئلة الإلزامية التي تشكل جزءًا من طقوس الترحيب بالضيوف. تركزت كل الأنظار مرة أخرى على عرض الحمامات الجميلات، وقد تزينت قوائمها بحلقات وأساور المصنوعة من الخرز الملون... انحنى عارف نحونا: "تربية الحمام هواية خبيثة. سترون. أسوأ من الحشيش".



التعليقات

التعليقات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

الكاتب

عماد الدين رائف

مقالات أخرى للكاتب

بعلبك 1959: مهرجان وسياسة... وحشيش (2)

الأحد 2025/06/29

بيروت 1844: المدينة وناسها في زمن مضطرب

الأربعاء 2025/05/14

لينا كوستينكو: وصمها السوفيات بـ"عداوة الشعب"...هي الفخورة مثل ثورة

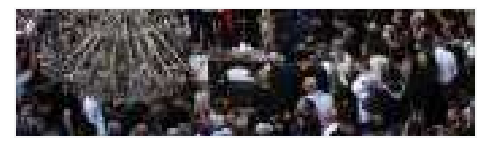
الأربعاء 2025/03/19

"أغنية الغابة" بالعربية...أسحار أوكرانيا وقد مرّت بالجزائر

الخميس 2025/02/20

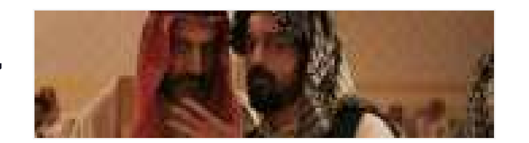
عرض المزيد

الأكثر قراءة





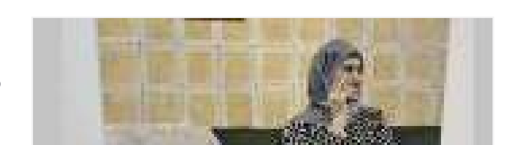
قراءة هادئة في خطاب البطريرك



"صيفي": سعودية الكاسيت



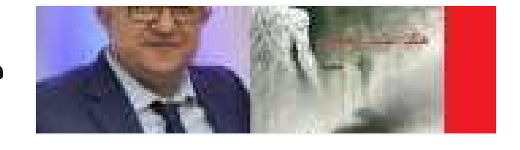
بعلبك 1959: مهرجان وسياسة... وحشيش (2)



معرض ميسم الهندي: شهادة من أهل هذا البيت



الحسام محيي الدين يقرأ نقمة عصام محفوظ ولغته ...



هيثم حسين يفتح أرشيف جسده في سيرة مؤلمة


المدن
جريدة إلكترونية مستقلة

النشرة البريدية

خطوة بسيطة وتكون ممن يطلعون على الخبر في بداية ظهوره

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك





